باب

ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

۞ وقولِ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٥١].

وقولِه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٦٠].

وقولِه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف:٢١].

وعن أبي سعيدٍ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لَتتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلَكم حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة، حتى لو دَخَلوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدخلتُمُوه» قالوا: يا رسول الله، اليهودَ والنصارَى؟ =

= قال: «فمَنْ؟!». أخرجاه[١]. [٢] [٩]

[شرح ٩] يقول المؤلف رحمه الله: (باب ما جاء أن بعض هذه الأُمة يعبد الأوثان) يعني: باب ما جاء من النصوص من الآيات والأحاديث الدالَّة على أن بعض هذه الأمةِ؛ أُمةِ محمدٍ ﷺ، يعبد الأوثان، وأراد المؤلف بهذه الترجمة الردَّ على مَن قال: إنَّ أُمة محمدٍ ﷺ لا يقع فيها شركٌ وأنها مطهَّرةٌ من عهد النبي ﷺ إلى يوم القيامة.

وهذا من قول بعض الجَهَلة الذين ليس لهم بصيرة بالنصوص، فيزعُمون أن هذه الأمة لا يقع فيها شركٌ وأن ما يتعلَّق بعبادة الأوثان أو غيرِ ذلك من سبِّ الدِّين أو ما شابَهَ، لا يُسمَّى شِركاً، ويتأوَّلون لهذا تآويلَ، وهذا يقوله الجهلةُ من عُبّاد القبور وأشباههم الذين ليس عندهم بصيرة ولا علم ولا هدى. =

---

(١) أخرجه البخاري: الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٢٠)، ومسلم: العلم (٢٦٦٩)، بلفظ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراعٍ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم..»، وليس فيه عندهما «حذو القذة بالقذة»، وهي عند أحمد (٤/ ١٢٥) من حديث شداد بن أوس في حديث بنحوه.

(٢) ص٢٨٧.

.....

= أما أهلُ العلم والإيمان فقد أَجمعوا على وقوع الشرك في هذه الأُمة بعد وفاته ﷺ، بل ثبتَ أنها في آخر الزمان تُطبِق على الشِّرك ولا يبقى فيها من يقول: لا إله إلا الله، ولا يبقى في الدنيا من يعبد الله وحدَه، فكلُّهم مطبقون على الشرك بالله، وعليهم تقوم الساعةُ كما قال النبي ﷺ: «لا تقوم الساعةُ حتى لا يقالَ في الأرض: الله الله»[1].

المقصود أنه في آخر الزمان يُرفَع القرآن من الصدور ومن الصُّحف، ويموت المؤمنون؛ ويرسل الله ريحاً طيِّبة تَقبِضُ روحَ كل مؤمن ومؤمنة، ولا يبقى إلا الأشرار وعليهم تقوم الساعة، فيأتيهم الشيطان ويزيِّن لهم الشرك وعبادةَ الأوثان والأصنام فيعبدونها كما كانوا في الجاهلية، وفي هذا يقول النبي ﷺ: «لا يذهبُ الليل والنهار حتى تُعبَدَ اللَّاتُ والعُزَّى»، رواه مسلم في «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها[2]، وقال ﷺ: «لا تقومُ الساعةُ حتى تَضطَرِبَ أَلَيَاتُ نساءِ دَوْسٍ على ذي الخَلَصَة»، رواه البخاري في =

(١) مسلم: الإيمان (١٤٨).

(٢) مسلم: الفتن وأشراط الساعة (٢٩٠٧).

.....

= «الصحيح»[1]، وبوَّب عليه: باب تغيُّر الزمان حتى تُعبَد الأوثان، فثبت في النصوص بأن الشرك واقع في هذه الأُمة في الجزيرة وغيرها.

كذلك وقع في غيرهم، فقد قال جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء:٥١]، فأخبر سبحانه أن بعض أهل الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، والجبت فُسِّر بالصنم والوَثَن، وفُسِّر بالسحر، والطاغوت فُسر بالشيطان، وبكل ما جاوز حدَّه من الأقوال والأعمال.

فاليهود والنصارى وجد فيهم من آمن بالجبت والطاغوت، ووجد فيهم من يقول لأهل الكفر: إنهم أهدى من أهل الإيمان سبيلاً، كما فعل حُيي بن أَخطَب وغيره، لما سأله كفارُ مكة عن =

(١) البخاري: الفتن (٧١١٦)، وأخرجه أيضاً مسلم: الفتن وأشراط الساعة (٢٩٠٦).

.....

= محمد وعن حالهم فقال: أنتم خيرٌ وأهدى سبيلاً من محمد؛ نعوذ بالله من حاله.

فالمقصود أنه وُجِد في أهل الكتاب من فضَّل الكفر على الإسلام وجعله أهدى، وفيهم من عَبَد الطاغوت وآمن بالجِبت، وفيهم من عَبَد الأصنام والأوثان، وهذه الأُمة يقع فيها مثل ذلك؛ لأن الرسول ﷺ قال: «لتتَّبعن سَننَ مَن كان قبلَكم» وقال: «لا تقومُ الساعةُ حتى تأخذَ أُمتي بأَخْذ القرونِ قبلَها شبراً بشبر، وذِراعاً بذراعٍ»[1].

فدلَّ ذلك على أنه يقع في هذه الأمة مثلُ ما وقع في الماضِين، من عبادة الأصنام والأوثان وسبِّ الدين، وتفضيل الكفار على المسلمين.

وهكذا قولُه جل وعلا: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ =

(١) أخرجه البخاري: الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣١٩).

.....

= ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠].

وقوله جل وعلا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف:٢١].

وقول النبي ﷺ: «لعنَ الله اليهودَ والنصارى، اتَّخَذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ»[1].

إذاً فهذه الأُمة يقع فيها ذلك، لأن الرسول ﷺ أخبر أنها تسلك مسلك من كان قبلها، وفعلاً وقع ذلك، فهذه بلدان كثيرة مملوءة بالقبور المعبودة من دون الله، في مصر والشام، والعراق وباكستان، وغيرها من البلدان، قبور مشيَّدة ومعظَّمة، عليها المساجد والقِباب، تُدعَى وتُسأَل من دون الله عز وجل كما فعل الأوَّلون من اليهود والنصارى وأهلِ الجاهلية.

والأصل في هذا كله قولُ النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح: «لتَتَّبعُن» يخاطب الأُمة، يعني: أُمتَه ﷺ «سَنَنَ مَن كان قبلَكم» =

(١) أخرجه البخاري: الجنائز (١٣٣٠)، ومسلم: المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٩).

.....

= يعني: طُرق من كان قبلكم «حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة»، و«القُذَّة»: الرِّيشة في السهام التي يرمى بها، فكما أن هذه القُذة تحاذي القُذة فأنتم كذلك، ستتبعون مَن قبلكم وتُساوُونهم كما تُساوَى القذة بالقذة، كي تسلكوا مسالكهم وتأخذوا طرائقهم، وتسيرون على نهجهم سواء بسواء، وفي رواية: «شِبراً بشبر وذراعاً بذراع» وهو من باب التأكيد في هذا المقام، وأنه واقع وقوعاً تاماً، مبالغاً فيه جداً.

(حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتُموه) فلو أن اليهود والنصارى وعُبَّاد الأوثان السابقين دخلوا جُحر ضب، وهو جُحْر صغير، لدخلتموه أنتم أيضاً، وهذا من باب المبالغة؛ فإنهم يضربون المثل بالشيء الذي لا يقع للمبالغة.

(قالوا: اليهودُ والنصارى؟) بالضم، ويروى بالنصب: (اليهودَ والنصارى) على تقدير فعل محذوف (قال: فمَن؟) المعنى: فمَن إلا أولئك.

وفي لفظ آخر: فارس والروم؟ قال: «وهل الناس إلا =

.....

= أولئك»[١].

فالمعنى: أن هذه الأمة تسلك مسلك الروم وفارس من العجم، ومسلك النصارى واليهود، من عُبَّاد الأوثان وعُباد الأصنام، ولم يستثنِ جزيرة العرب من غيرها إلا في الأحاديث التي ظنَّها بعضُ الناس استثناء، وهو حديث: «إنَّ الشيطان قد أيس أن يعبده المصلُّون في جزيرة العرب، ولكن في التحريشِ بينهم» من حديث جابر وغيره[٢].

قال أهل العلم: هذا لا يدل على أن الجزيرة مطهَّرة من الشرك، ولكن يدل على أن الشيطان يئس من وقوع الشرك فيها، فإنه عندما رأَى ظهورَ الإسلام، وقيامَ النبي ﷺ بجهاد المشركين فيها، وكونَها أَقبلَت على الخير والهدى ـ يئس أن تعودَ إلى حالها الأولى من الشرك. =

(١) أخرجه البخاري: الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣١٩).

(٢) حديث جابر أخرجه مسلم: صفة القيامة (٢٨١٢).

.....

= وقيل: المعنى: أنه يئس لما رأى ظهور الخير، ويأسُه غير معصوم، فقد ييأس من الشيء ويقع، وقد يرجوه ولا يقع.

وقيل في المعنى: إنه يئس أن يعبده المصلُّون في الجزيرة، يعني: الصحابة، فهو يأسٌ معلَّق بزمن الصحابة لا بجميع الأزمان.

وبكل حالٍ فهذه الأجوبة سواء، فسواءٌ القول: إنه يئس أن تعود الحالةُ الأولى بأن تُطبِقَ الجزيرةُ على الشرك، وهذا غير واقع، فلا تزال طائفةٌ على الحق منصورةً حتى تُقبَض أرواحُ المؤمنين والمؤمنات، أو القولُ بأن المراد بذلك أنه يئس أن يعودَ الصحابة إلى الكفر والضلال ـ وهذا والحمد لله لم يقع ـ أو القولُ: إنه يئس لِما رأى من ظهور الدِّين وظهور الحق، ويأسه غير معصوم، فهو ليس معصوماً في يأسه، كما أنه غير معصوم في رجائه.

وهذا الجوابُ الأخير هو عندي أحسن الأجوبة، وهو أنَّ يأسه غير معصوم، فقد ييأس من الشيء ويحصل، وقد يرجوه ولا يحصل، ولم يقل النبي ﷺ: إن الله يأَّسه، بل قال: إنه يئس. =

.....

= وقد وقع في النصوص ما يدل على وقوع الشرك في الجزيرة، كما سبق في حديث ذي الخَلَصة وحديث عِبادة اللَّات والعُزَّى، وكذلك قوله ﷺ: «لا تقومُ الساعةُ حتى تَلحَقَ قبائلُ من أُمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائلُ من أمتي الأوثانَ»[1]، فعُلم بذلك أن الجزيرة يقع فيها الشرك كما يقع في غيرها، وقد يكون ذلك أقلَّ من غيرها؛ لأنها منبع الوحي ومهبطه، ولكن في آخر الزمان سوف يقع بلا رَيْب، وسوف تُطبِق الدنيا كلها على الشرك، ولا يبقى في الدنيا من يقول: لا إله إلا الله، وعليهم تقوم الساعةُ، نسأل الله العافية.

وليس معنى وقوعه في الأُمة أن هذا جائز، بل المعنى التحذيرُ منه، وأنه يجب على الأمة أن تحذر الشرك وأن تبتعد عن وسائله وذرائعه، لئلا تقعَ فيه كما وقع فيه غيرها، ولكن مع ذلك يخبرهم أنه لا بدَّ أن يقع ليعلموا الواقع، وليعلموا الحقيقة، وليأخذوا حذرهم من هذا الشرك الذي أخبر النبي ﷺ أنه سيقع، وأن الأمة تَسلُك مَسلَك من كان قبلها. =

(١) أخرجه أبو داود: الفتن والملاحم (٤٢٥٢)، والترمذي: الفتن (٢٢١٩).

.....

= فالمقصود من هذا أمران:

الأمر الأول: الإخبار بوقوع هذا الشيء.

والأمر الثاني: أن الإخبار بوقوعه لا يدلُّ على جوازه، بل يجب الحذرُ منه والبعد عنه، وعن وسائله وذرائعه كما في النصوص الأخرى، والله أعلم*.

---

* **س: إذا لم نستطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنكرنا بقلوبنا، فهل يقتضي ذلك المفارقة؟**

ج: لا يمكن حسابها، فهي حسب الحاله ولا يلزم من ذلك المفارقة، فإذا كان في مجلس فيه منكر يُنكر عليهم، فإن لم يجيبوه قام عنهم، حتى يخوضوا في حديث غيره كما قال الله جل وعلا.

س: عندي زوجة وعندي أولاد، ويجبروني ـ مثلاً ـ على حلق لحيتي، أو أن أشتري لهم شيئاً من الملاهي كالتلفاز، وإذا جاء ـ مثلاً ـ وقت الصلاة، تركتهم يلعبون الكرة وذهبت!

ج: جاهدهم في الله، جاهدهم بحيث لا يكون حبهم مانعاً لك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يجوز هذا لك، هذا من باب الفتنة =

.....

= بالأولاد وعداوتهم إلا من عصم الله، فالواجب الحذر من هذا الشر، وأن تجاهدهم في الله ـ الزوجة والأولاد والأقارب ـ حتى تبرئ الذمة.

س: في مجال عملي أُجبَر على أن أتصور وأصور، فما حكم ذلك؟

ج: هذا من باب ارتكاب أخفِّ الضررين، فكونك تصوِّر أو تشاهد بعض ما لا يرضيك، أهونَ من ترك العمل.

س: حديثٌ وَرَدَ عن النبي ﷺ في الفتن فيه: «فالزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف، ودع ما تُنكر، وعليك بأمر خاصَّة نفسك، واترك عنك أمرَ العامة»[1].

ج: هذا معناه صحيح، ورد في حديث عبد الله بن عمرو، إذا عجز الإنسان عن إنكار المنكر ولم يكن له حيلة، فلا يخالطهم.

س: هل يعتزل؟

ج: في هذه الحالة يسقط عنه الأمر والنهي ويكون معذوراً.

---

(١) أخرجه أبو داود: الملاحم (٤٣٤٣).

۞ ولمسلمٍ[1] عن ثَوْبانَ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الله زَوَى ليَ الأرضَ، فرَأَيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سيَبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها، وأُعطِيتُ الكَنزَينِ الأحمرَ والأبيضَ، وإنِّي سأَلتُ ربِّي لأُمَّتي أن لا يُهلِكَها بسَنَةٍ بعامَّةٍ، وأن لا يُسلِّطَ عليهم عدُوّاً مِن سِوى أنفُسِهم، فيَستَبيحَ بَيْضَتَهم، وإنَّ ربِّي قال: يا محمدُ، إنِّي إذا قضيتُ قَضَاءً فإنَّه لا يُـرَدُّ، وإنِّي أَعطيتُكَ لأُمَّتِكَ أَلّا أُهلِكَهم بسَنَةٍ بعامَّةٍ، وأن لا أُسلِّطَ عليهم عَدُوّاً مِن سِوى أَنفُسِهم، يَستَبيحُ بَيْضتَهم، ولو اجتَمَعَ عليهم مَن بأَقطارِها، حتَّى يكونَ بعضُهم يُهلِكُ بعضاً، ويَسْبي بعضُهم بعضاً».

ورواهُ البَـرْقاني في «صحيحه»، وزادَ: «وإنَّما أَخافُ على أُمَّتي الأئمَّةَ المُضِلِّينَ، وإذا وَقَعَ عليهم السيفُ لم يُرفَعْ إلى يومِ القيامةِ، ولا تَقُومُ الساعةُ حتَّى يَلْحَقَ حيٌّ مِن أُمَّتي بالمشركينَ، وحتَّى تَعبُدَ فِئامٌ مِن أُمَّتي الأَوثانَ، وإنَّه سيكونُ =

(١) مسلم: الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩).

= في أُمَّتي كَذَّابونَ ثلاثونَ، كلُّهم يَزعُمُ أنَّه نبيٌّ، وأَنا خاتَمُ النبيِّينَ، لا نبيَّ بَعْدي، ولا تَزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي على الحَقِّ منصورةً، لا يَضُرُّهم مَن خَذَلَهم، حتَّى يأتيَ أَمرُ الله تبارك وتعالى»[1].

فيه مسائلُ:

الأولى: تفسيرُ آية النساءِ.

الثانية: تفسيرُ آية المائدةِ.

الثالثة: تفسيرُ آية الكَهْف.

الرابعة: وهي أَهمُّها: ما معنى الإيمانِ بالجِبْت والطاغُوتِ في هذا الموضِع؟ هل هو اعتِقادُ قَلْبٍ؟ أَو هو مُوافَقةُ أَصحابِها مع بُغْضِها ومَعرِفةِ بُطْلانها؟

الخامسة: قولهم: إنَّ الكفارَ الذين يَعرِفونَ كُفْرَهم أَهْدى سبيلاً مِن المؤمنينَ. =

(١) ورواه ابن ماجه بهذه الزيادة أيضاً: الفتن (٣٩٥٢).

= **السادسة**: وهي المقصودُ بالتَّرجمةِ: أَنَّ هذا لا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ في هذه الأمَّةِ كما تَقرَّرَ في حديثِ أَبي سعيدٍ.

السابعة: تصريحُه بوُقُوعِها ـ أَعني: عبادةَ الأوثانِ ـ في هذه الأُمَّة في جُموعٍ كثيرةٍ.

الثامنة: العَجَبُ العُجابُ: خروجُ مَن يَدَّعي النُّبوَّةَ؛ مثل المُخْتارِ[1]، مع تَكلُّمِه بالشهادتَينِ، وتصريحِه بأَنَّه من هذه الأمَّةِ، وأَنَّ الرسولَ حقٌّ، وأَنَّ القُرآنَ حَقٌّ، وفيه أَنَّ محمَّداً خاتَمُ النبيِّينَ، ومع هذا يُصَدَّقُ في هذا كلِّه، مع التَّضادِّ الواضح، وقد خَرَجَ المختارُ في آخِرِ عَصْرِ الصحابةِ، وتَبِعَه فِئامٌ كثيرةٌ.

التاسعة: البِشارَةُ بأَنَّ الحَقَّ لا يزولُ بالكُلِّيَّة كما زالَ فيما مضى، بل لا تزالُ عليه طائفةٌ.

العاشرة: الآيةُ العُظْمى: أَنَّهم مع قِلَّتهم لا يَضُرُّهم مَن =

---

(١) هو المختار بن أبي عُبيد الثقفيّ، قُتل سنة ٦٧ هـ في خلافة عبد الله بن الزبير ﷺ.

= خَذَلَهم، ولا مَن خالفَهم.

الحادية عشرة: أَنَّ ذلك الشَّرْطَ إلى قيامِ الساعةِ.

الثانية عشرة: ما فيه مِن الآياتِ العَظِيمةِ: منها إخبارُه ﷺ بأنَّ اللهَ زَوَى له المشارقَ والمغارِبَ، وأَخبرَ بمعنى ذلكَ فوَقَعَ كما أَخبرَ؛ بخِلافِ الجَنُوب والشَّمالِ. وإخبارُه ﷺ بأنَّه أُعطيَ الكَنزَينِ. وإخبارُه ﷺ بإجابةِ دَعوتِه لأُمَّتِه في الاثنتَينِ، وإخبارُه ﷺ بأنَّه مُنِعَ الثالثةَ. وإخبارُه ﷺ بوُقُوعِ السيفِ، وأنَّه لا يُرفَعُ إذا وَقَعَ.

وإخبارُه ﷺ بإهلاكِ بَعضِهم بعضاً، وسَبْيِ بَعضِهم بعضاً. وخوفُه ﷺ على أُمَّته مِن الأَئمَّة المضلِّينَ. وإخبارُه ﷺ بظُهورِ المُتنبِّئينَ في هذه الأُمَّة. وإخبارُه ﷺ ببقاءِ الطائفةِ المنصورةِ. وكلُّ هذا وَقَعَ كما أَخبَرَ، مع أنَّ كلَّ واحدةٍ منها أَبعَدُ ما يكونُ في العُقولِ.

الثالثة عشرة: حَصْرُ الخوفِ على أُمَّتِه مِن الأئمَّةِ المُضِلِّينَ. =

= **الرابعة عشرة**: التَّنبيهُ على مَعْنى عِبادةِ الأوثانِ[1]. [١٠]

[شرح ١٠] قال المؤلف رحمه الله: (ولمسلم عن ثوبان) ثوبانُ مولى رسول الله عليه الصلاة والسلام (أن رسول الله ﷺ قال: إن الله زَوَى ليَ الأرض) زَوْيُها: ضمُّ بعضها إلى بعض، والمعنى أن الله ضمَّ بعضها إلى بعض حتى أَراها نبيَّه عليه الصلاة والسلام، على طولها وعرضها.

(فرأيت مشارقَها ومغاربَها، وإن أُمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها) يدل على أن مُلكَ الأمة يتسع شرقاً وغرباً، وقد وقع ذلك، فقد اتَّسع ملكُ الأمة إلى حدود الصين من جهة الشرق، وإلى أَقصى المغرب من جهة الغرب، بسبب استقامتهم على دين الله وجهادهم في سبيل الله، فلما صبروا وجاهدوا واستقاموا، أعطاهم الله ما طلبوا ورَجَوْا، وأمنهم وأعانهم، ويسر أمورهم، ونصرهم على أعدائهم.

فلما غيَّر الناسُ غيَّر عليهم، وصارت أملاكهم تؤخذ من =

(١) ص٢٨٧-٢٩٠.

.....

= أطرافها، حتى صارت الحال إلى ما صارت، بسبب التغيير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

(وإن أمتي سيبلغ مُلكُها ما زُويَ لي منها، وأُعطيتُ الكنزين الأحمر والأبيض) هذا أيضاً من علامات النبوة كالأول، فإن ملك أُمته قد اتسع كما تقدَّم، وهذا من دليل صدقه ﷺ، وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ رسول الله حقّاً، فقد أخبر بالشيء قبل أن يقع، فوقع كما أخبر.

كذلك أُعطيَ عليه الصلاة والسلام الكنزين الأحمر والأبيض، أي: كنوزَ كسرى وقيصر، فقد يُسِّر للأُمة أيضاً الاستيلاءُ على مملكة كسرى كلها، وعلى ملك قيصر في الشام وما حولها، وصارت غنيمةً للمسلمين، وأُنفقت كنوزهما من الذهب والفضة في سبيل الله.

والأحمر كنايةٌ عن الذهب، والأبيض عن الفضة، وهذا أيضاً قد وقع في عهد عمر، وفي عهد عثمان رضي الله عنهما، فقد استولى المسلمون على مملكة الشام لقيصر، وعلى مملكة الكِسراويين في =

.....

= العراق وبلاد العجم، وصارت للمسلمين، وقُضِيَ على ملك كسرى بالكُلِّيّة، وشتَّتَ الله شملَه وقَطَع دابرَه، وهذه من علامات النبوة أيضاً.

(وإنِّي سألتُ ربي لأمتي أن لا يُهلكَهم بسَنَة بعامَّة، وأن لا يسلِّط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم فيستبيحَ بَيضتَهم) وهذا أيضاً من إحسانه عليه الصلاة والسلام، فإنه سأل ربَّه لأمته أن لا يهلكهم بسَنَة عامَّة، كما فعل بالأمم الماضية.

فإن الله ـ جل وعلا ـ أَهلَك أمماً كثيرة عموماً، وقطع دابرها عموماً، بسبب عصيانها، وكفرها بما جاءت به الرسل، كما جَرَى لأقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وكما جَرَى لفرعون، كلهم أُهلِكوا بأسباب أعمالهم الخبيثة، وعصيانهم للرسل عليهم الصلاة والسلام.

أما هذه الأُمة، فقد أجاب الله تعالى دعوةَ نبيِّه ﷺ في عدم إهلاكها بسَنَة عامَّة، أي: بجَدْب عامّ وقَحْط عامّ يعمُّ الجميع، وإنْ جرى عليها نكَبات ومصائبُ لبعضها، لكنها تبقى حتى تكون آخرَ =

.....

= الأمم، وحتى تقومَ على آخرها الساعة.

(وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم) أي: من غير أنفسهم، أي: من الأعاجم من الكَفَرة الذين هم غير العرب (فيستبيح بَيضتَهم) أي: مجتمعهم وموضع سلطانهم.

قوله: (وإن ربي قال: يا محمدُ، إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُرَدُّ) يبين ﷻ على لسانه نبيه ﷺ أن قضاءه لا يُرَد، وأن ما أبرمه الله وقضاه وقدَّره على هذه الأمة، فإنه سوف يقع ولا يردُّه رادٌّ.

وهذا هو القضاء المبرَم، القضاء الذي لم يُعلَّق، أما أنواع القضاء الذي قد يعلَّق بأشياء، فإنه يقع بحسب شروطه وآجاله التي قدَّرها الله ﷻ، فقد يكون هلاك فلان معلَّقاً بكذا، وهلاك الأمة الفلانية معلقاً بكذا، وسقوط دولة فلان معلقاً بكذا، إلى غير ذلك.

فما قضاه الله ﷻ من القضاء المعلَّق يقعُ بحسب شروطه، وأما القضاء المبرَم العامُّ للجميع فإنه لا يُرد، فما شاءه جل وعلا وقضاه وقدَّره، فإنه ﷻ مُنجِزٌ قَدَرَه ومنجزٌ ما شاءه ﷻ، لا يردُّه رادٌّ، ولا =

.....

= يمنعه مانع.

وأخبر أنه أعطاه لأمته أن لا يُهلِكَهم بسَنَة بعامَّة، وأن لا يسلِّط عليهم عدوّاً من سواهم فيستبيح بيضتهم، وهذا هو الواقع، فإن الله جل وعلا أجاب دعوته، ولكن سأله أن لا يجعلَ بأْسَهم بينهم، فلم يُجِبه[1].

وقد وقع في أوقات كثيرة بأسُهم بينهم، وتقاتلوا كما وقع في عهد عليٍّ ومعاوية، وما بعد ذلك إلى زماننا هذا، ولكن الله جل وعلا حماهم من تسليط غيرهم عليهم حتى يكون بعضُهم يهلك بعضاً، فإذا تشاجروا وتنازعوا سُلِّط عليهم أعداؤهم الخارجيون كما قد وقع، أما إذا استقاموا على دين الله وصبروا على دين الله، فإن الله ينصرهم ويؤيِّدهم ويُعِينهم، ويكفيهم شرَّ أعدائهم، فإذا اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا، فإنَّ هذا من أسباب تسليط الأعداء =

(١) كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما، أخرجه مسلم: الفتن وأشراط الساعة (٢٨٩٠).

.....

= عليهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد بيَّن جل وعلا في كتابه العظيم أن الأُمة إذا استقامت على دين الله ونصرت الحق، فإن الله ينصرها ويؤيدها، كما قال ﷻ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧].

وقال ﷻ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج:٤٠-٤١].

فأخبرهم الله جل وعلا أنهم متى استقاموا ونصروا دين الله، وأَمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر، فإن الله ينصرهم ويعينهم ويثبِّتهم ويكفيهم شرَّ أعدائهم، ومتى ضيَّعوا واختلفوا وتساهلوا في أمر الله تعالى، سُلِّط عليهم أعداؤهم، ويقع ذلك منه ﷻ على أنه عقوبات معجَّلة لهم.

ومتى رجع المسلمون وأنابوا إلى الله وتابوا، فإن الله ﷻ يرد لهم ما كان شارداً، ويعطيهم ما كان ذاهباً، وينصرهم على أعدائهم، =

.....

= فالمعوَّل على رجوعهم، فإذا رجعوا واستقاموا على أمر الله فالله جل وعلا يغير حالهم السيئة إلى حال خير منها، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

فمن رجع إلى الله وتاب وأناب إليه، غيَّر حاله من ذلٍّ إلى عزٍّ، وكذا الأُمة إذا ما رجعت إلى الله وتابت وأنابت إليه، واتفقت فيما بينها، فإن الله يغيِّر حالها من فُرقةٍ إلى جماعة، ومن شِدَّةٍ إلى رخاء وعافية ونعمة، وربك جل وعلا هو الجواد الكريم، وهو على كل شيء قدير ﷻ.

قوله: (ورواه البِرقاني) البرقاني بالكسر، ويفتح أيضاً، ضُبطت بالفتح والكسر، وهي نسبة إلى قرية في خُوَارَزْم من بلاد الشرق، نسب إليها الإمام أحمد بن محمد بن أحمد الخُوارزمي البرقاني رحمه الله، وهو إمام شهير من المحدِّثين والفقهاء، وهو من تلاميذ أبي الحسن الإمام المشهور علي ابن عمر الدارَقُطْني رحمه الله، وهو من شيوخ الخطيب البغدادي المعروف صاحب «تاريخ بغداد»، وهو إمامٌ عند أهل العلم ثقةٌ حافظ، له «مستخرج على =

.....

= الصحيحين».

وهذه الزيادة رواها في «مستخرجه على صحيح مسلم» لـمّا روى حديث ثوبان الذي رواه مسلم، قال: «وإنما أخافُ على أُمتي الأئمةَ المضلِّين»، أي: في حديث ثوبان من زيادات البرقاني «وإنما أخافُ على أُمتي الأئمة المضلِّين».

وهذا الخبر له مصداقه في أوقات كثيرة، وفي قرون كثيرة، فإن الأئمة المضلِّين شرُّهم عظيم وفسادهم كبير، وهم القادة من الأمراء والعلماء الذين يُضِلون الناس بغير علم، فإن الناس يقلِّدونهم ويتبعونهم على باطلهم وضلالهم.

وقد وقع في الأُمة شرٌّ كثير وفساد عريض بسبب الأئمة المضلين من أهل البدع وملوك وأمراء السوء، فإنهم يضرون كثيراً بأعمالهم السيئة وباقتداء الناس بهم.

وقوله ﷺ: (وإذا وقع عليهم السيف لم يُرفَع إلى يوم القيامة)، قد وقع هذا، فإنه لما قُتِلَ عثمان ﷺ وصارت الفتنةُ، لم يزل الناس في =

.....

= قتال وفتن إلى يومنا هذا، لكنها تقلُّ في بعض الأوقات، فعند استقامة الوُلاة على دين الله تقلُّ الفتن، وعند انحرافهم تكثر الفتن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقوله: (ولا تقوم الساعةُ حتى يلحقَ حيٌّ من أُمتي بالمشركين، وحتى تعبُدَ فِئام) أي أقوام (من أُمتي الأوثان) وهذا أيضاً قد وقع، والساعة لم تقم الآن، وقد وقع هذا المعنى في قرون كثيرة، فقد ارتدَّ كثير من العرب بعد وفاة النبي ﷺ، فقاتلهم الصِّدِّيق والصحابة، ثم بعد ذلك لم يزل يوجد في الأُمة من يرتد عن دينه ويلحق بالمشركين.

وهذا مِصداق ما أخبر به النبي ﷺ من أن هذه الأمة سوف تسلك مسالك مَن كان قبلها من الأُمم، وتتبع سَنَنهم في الشر والفساد، ومن ذلك رِدَّتهم عن الإسلام والتحاقهم بأعداء الله تعالى من اليهود والنصارى، وعُبَّاد الأوثان وغيرهم من الكفرة.

ولم يستثن ﷺ الجزيرة العربية من العودة إلى مظاهر الشِّرك، =

.....

= بل أطلقَ، وهذا هو الشاهد من الحديث، فقد ساقه المؤلف من أجل هذه الكلمة، يقول ﷺ: (ولا تقوم الساعةُ حتى يلحقَ حيٌّ من أُمتي بالمشركين، وحتى تَعبُدَ فِئامٌ من أُمتي الأوثان) لأن الترجمة هي (باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان)، هذا هو الشاهد من الترجمة: أنه يقع في الأمة من يرتد عن دينه ويعبد الأوثان، ويلتحق بالكفرة من اليهود والنصارى و غيرهم.

ثم قال: (وإنه سيكون في أمتي كذَّابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبيٌّ وأنا خاتم النبيين لا نبيَّ بعدي) وقد وقع هذا أيضاً، فقد تنبَّأ كثيرون منهم في عهد النبي ﷺ وفي عهد الصحابة.

ففي عهده ﷺ تنبأ مُسيلِمةُ والأسود العَنْسي، وقد قُتِلا، ثم بعد ذلك تنبأ المختار بن أبي عُبيد الثقفي في العراق وقتله مصعب ابن الزُّبير بأمر أخيه عبد الله، وكذلك تنبأ الحارث الكذاب ـ وهو الحارث بن سعيد ـ وقتل في الشام أيضاً، وتنبأ آخرون، ولم يزل يوجد ذلك. =

.....

= والمراد أن هؤلاء المتنبِّئين الكذابين يكون لهم شوكة وأتباع، هذا هو المراد، وإلا فالمتنبئون كثيرون جداً يزيدون على الثلاثين، لكن بعضهم يتنبأ لخلل في رأسه، أو لمرض أو جنون يصيبه، فلا عِبْرة بهؤلاء، ولذلك حَصَرهم النبي ﷺ بقوله: «قريبٌ من ثلاثين»[1]، وهم الذين يكون لهم شوكة، ويكون لهم شُبهة، ولهم أتباع.

وآخرهم المسيح الدجال ـ قبحه الله ـ فإنه خاتم لهؤلاء الكذابين الكفرة، فإنه يدَّعي النبوةَ أولاً، ثم يتبعه أتباع، فينتقل من النبوة إلى دعوى الإلهية، ويقول: إنه رب العالمين، ويُظهِر الخوارق التي معه للناس، فيتبعه أممٌ كثيرة، قال النبي ﷺ: «ما بين خَلْق آدم إلى قيام الساعة، أمرٌ أكبرَ من الدجال». رواه مسلم في «الصحيح» من حديث هشام بن عامر[2].

وأمرُ فتنة الدجال عظيم جدّاً، ولذلك أَمر النبي ﷺ بالتعوذ =

(١) أخرجه البخاري: الفتن (٧١٢١)، ومسلم: الفتن وأشراط الساعة بإثر حديث (٢٩٢٣) (١٥٧).

(٢) أخرجه مسلم: الفتن وأشراط الساعة (٢٩٤٦).

.....

= من فتنته في آخر الصلاة، وهي من الأربع اللاتي كان النبي ﷺ يستعيذ منهنَّ في آخر الصلاة[1].

وإنما سُمِّيَ دجالاً لكثرة كذبه وترويجه للباطل، وتزويره على الناس حتى يغترَّ به الكثيرون من الناس في آخر الزمان، نسأل الله العافية والسلامة.

المقصود أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بيَّن أنه خاتم النبيين وآخرهم، لا نبيَّ بعده، ومن ادَّعى النبوة بعده فهو كافر كاذب مخالف لنصوص الكتاب والسنة*. =

* س: يقولون: إن ابن كثير كان ينكر المهدي؟

ج: لا، فقد جعل له ترجمة خاصة في كتاب «النهاية» ذكر فيه الأحاديث، وبيَّن خطأ الرافضة في دعواهم أنه مهديُّهم.

س: ولماذا يُنكَر المهدي، هل أحاديثه ضعيفة؟ =

(١) انظر حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عند البخاري: الجنائز (١٣٧٧)، ومسلم: المساجد (٥٨٨).

.....

= ثم قال بعد ذلك: (ولا تزالُ طائفةٌ من أمتي على الحق منصورةً لا يضرُّهم من خذلهم حتى يأتيَ أمر الله تبارك وتعالى) هذه أيضاً بِشارة من النبي ﷺ أن هذه الأمة لا يزال فيها الحق بحمد الله، فلا ينقطعُ منها أبداً إلى آخر الزمان، فلا يزال فيها طائفة ثابتة على الحق علماً وعملاً تظهره، وتُعلِنه وتدعو إليه.

ولا يلزم مَن هم على هذه الصفات أن يكونوا في محلٍّ معيَّن، فقد يكونون في الجزيرة، أو خارجها، وقد يكون بعضهم في الجزيرة =

= ج: هذا ذكروه عن ابن خلدون صاحب «المقدمة» أنه يضعِّف الأحاديث ويقول: إنها غير صحيحة، والصواب: أن بعضها صحيح وبعضها ضعيف وبعضها موضوع، ففيه أحاديث صحيحة ثابتة، وأهل السنة والجماعة يُثبِتون المهديَّ، ويرون أنه من أشراط الساعة.

س: **وما درجة حديث: «لا مهدي إلا عيسى»**[1]؟

ج: حديث ضعيف، ليس بصحيح.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤٤١).

.....

= وبعضهم خارجها، فما ذكر لهم ﷺ محلًّا معيَّناً، بل قال: «ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة»، فقد يكونون في بلدان كثيرة أو في مقاطعات كثيرة، وقد يجتمعون في مكان وقد يفترقون، هذا كله ليس له ضابط.

فالمقصود أنهم موجودون، وأنهم منصورون، وأنهم مؤيَّدون، وهذه بِشارة من الله جل وعلا للنبي محمد ﷺ، وفي حديث البخاري عن معاوية قال: «لا تزالُ هذه الأُمة قائمةً على أمر الله لا يضرُّهم مَن خالفهم حتى يأتيَ أمر الله»[1]. فجاء: «لا يضرُّهم مَن خالفهم»، وجاء: «لا يضرُّهم مَن خذلهم»[2]، وجاء الجمع بينهما في بعض الروايات: «لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم»[3].

وهذا من نِعَم الله عليهم ومن فضله ﷻ ومن البشارات، فمع قِلَّتهم وتفرُّقهم في البلاد لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، =

(١) أخرجه البخاري: العلم (٧١).

(٢) عند مسلم: الإمارة (١٩٢٠).

(٣) عند البخاري: المناقب (٣٦٤١)، ومسلم: الإمارة (١٩٢٣) (١٧٤).

.....

= فيُظهِرون الدين ويدعون إليه ويبشرون به، وقد وُجد بحمد الله الآن حركاتٌ إسلامية في بلدان كثيرة وفي مقاطعات كثيرة كلُّها تدعو إلى الإسلام على ضَوْء الكتاب والسنة.

وهذا مما يدل على صدق هذا الخبر وصدق قائله، وأنه حق، وأنه جاء عن الله حقّاً، فالأمة لا تنقطع بحمد الله، فلا يزال فيها من يدعو إلى الله، ويبشِّر بالحق ويدعو إلى الكتاب والسنة.

وقوله: (حتَّى يأتيَ أمر الله) وأمر الله ريح طيِّبة في آخر الزمان قريب الساعة يقبض الله بها أرواح المؤمنين والمؤمنات، ثم يبقى الأشرار، فعليهم تقوم الساعة، فلا تزال الأمة فيها حق وفيها هدًى، حتى تأتي هذه الريح، فهي ريح عظيمة يرسلها الله على عباده كما جاءَ في الأحاديث الصحيحة، فتقبض أرواح المؤمنين والمؤمنات، ويبقى الأشرار، فعليهم تقوم الساعة؛ كما جاءت به النصوص عن النبي ﷺ[1].

(١) انظر: «صحيح مسلم» (١٩٢٤) و(٢٩٠٧) و(٢٩٣٧) و(٢٩٤٠).

.....

= وقوله: (تبارك وتعالى) «تبارك» هذا اللفظ مما يُستعمَل في حقِّ الرب ﷻ، ولا يُستعمل في حق الناس، فلا يقال: تبارك فلان، ولا تباركت فلانة، بل هذا من خصائص الله؛ لأنها صيغة مبالغة، فلا تستعمل إلا في حق الله ﷻ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

فهذا الوصف خاصٌّ بالله ﷻ، ومعنى «تبارك»: بلغ النهاية، فيقال: فلان مبارَك، أي: بارك الله فيه، ولا يقال: تبارَكْت علينا يا فلان، بل يقال: جعلك الله مبارَكاً، أو أنت مبارَك يا فلان، وما أشبهَ ذلك، فلا يقال: تباركت.

هذا هو الصواب في هذه المسألة؛ لأنها صيغة جاءت في وصف الله ﷻ، ولم تأت في وصف غيره أبداً، وإنما جاءت في وصفه ﷻ فحسب، وهو المستحق لذلك، فإنه متبارِكٌ وعبده مبارَك*.

---

* س: وقولهم «زارتنا البركة»؟ =

.....

= ج: لا أعلم في هذا شيئاً، فهو من باب الرجاء، إذا ظنوا أن في هذا الشخص بركة، وأن زيارته تترتب عليها بركة، مثلما قال أسيد بن حضير في قصة عائشة لما نزلت آية التيمم: «ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر»[1].

فبعض الناس مبارك، فقد تأتي على يديه البركة.

وفق الله الجميع، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

(١) أخرجه البخاري: التيمم (٣٣٤)، ومسلم: الحيض (٣٦٧).

obeikandl.com